﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور:21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحذيرُ القرآنِ مِنْ وساوِسِ الشَّيطانِ

لمّا كان خَوضُ الناسِ في حادثةِ الإفكِ؛ استجابةً لنزَغاتِ الشيطانِ الذي يريد إيقاعَ العداوةِ والبغضاءِ بينَ المؤمنين، ويُحبُّ أن تَشيعَ الفاحشةُ بينَهم؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ مُحَذِّرَةً مِن اتِّباعِ خُطواتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: (تبع) "أصلٌ واحدٌ لا يشُذُّ عنه منَ الباب شيءٌ، وهو التُّلُوُّ والقُفوُّ"[2]، والاتِّباعُ: اقتفاءُ الأثرِ تارةً بالجسم، وتارةً بالارتِسام والائتِمار، والاتِّباع: اللَّحاق[3] بالقوم، والمشيُ خلفَهم[4]، متقدِّمين كانوا أو متأخِّرين بلا فصل، ويغدو هذا الاقتفاءُ والسيرُ في الأثر كأنَّما لحاقٌ بالشيء أو التِصاقٌ به[5]، وهذا المعنى هو المرادُ في الآية، أي: (لا تَسلُكوا سَبيلَ الشيطانِ وطُرُقَهُ، ولا تَقتَفوا آثارَه)[6]، مُلتَصِقين به، مُتَطَلِّبين له، مُتابِعين إيّاه، مُقتَدين به.

2) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: (خطو) أصلٌ يدُلُّ على تعَدّي الشيءِ والذهابِ به[7]، و﴿خُطُوَٰتِ﴾ جمعُ قلَّة لكلمةِ (خُطوة) بضمِّ الطاء وفتحها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 186.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبع).
(4) الجوهري، الصحاح: (تبع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 221.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطو).

وسكونها، يعني بها: المسافَةَ بَين القَدَمَيْنِ في المَشْي، والخُطا: الآثارُ، والخَطوة بفتح الخاء: المرَّة الواحدة، وجمعُ الكثرَة (خُطًا)[1]، والمراد بالخطوة في الآية: طريقةُ الشيطان وآثارُه ومسالِكُه[2].

3) ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: "الفاء والحاء والشين كلمةٌ تدُلُّ على قُبحٍ في شيءٍ وشَناعةٍ"[3]، وكلُّ شيءٍ جاوز حدَّه وقدرَهُ، فهو فاحِش، ولا يكون ذلك إلّا فيما يُكره كالزِّنى، وما جاوز الحدَّ في البُخل[4]، وكلِّ أمرٍ لم يوافقِ الحَقَّ ممّا عظُمَ قبحُه، وأفرَط من الأفعال والأقوال[5]، والمراد به في الآية: القبائحُ من الأَفْعال والأقوال[6].

4) ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ المعرفة الَّتي يسكُن إليها القلب، ونَكِر الشيءَ، وأَنكَرَه: لم يقبلْهُ قلبُهُ، ولم يعترِفْ به لِسانُهُ، والباب كلُّه راجِعٌ إلى هذا[7]، و"المُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكُم العقولُ الصحيحةُ بقُبْحِه، أو تتوقَّفُ في استقباحِه واستحسانه العقولُ، فتحكُم بقبحه الشَّريعة"[8]، والمراد به هنا: كلُّ ما يُنكِرُه الشَّرع، ونفوسُ أهلِ الخير ممّا يكرهُهُ الله تعالى، فتنفِر عنه، ولا ترتضيه[9].

5) ﴿زَكَىٰ﴾: "الزاي والكاف والحرف المعتلُّ أصلٌ يدلُّ على نماءٍ وزيادة"[10]، ومن هذا الأصلِ اشتُقَّت كلُّ معاني الزَّكاة: كالتَّطهير، والصلاح، والبَرَكة، والمدح، والتنميةِ في وجوهِ الخيرِ والبرِّ[11]، والمُتضَمِّنة جُلُّها في معنى ﴿مَا زَكَىٰ﴾ في الآية، فالمراد بها: "ما تطهَّر منكم مِنْ أحدٍ أبدًا مِن دَنَسِ ذُنوبِه وشِركِه"[12]، وما صلُح، وما اهتدى، ولا أسلمَ، ولا عرفَ رشدًا[13].

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، الجمهرة، والجوهري، الصحاح، والراغب الأصفهاني، المفردات: (خطو).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 347.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(4) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(5) الفراهيدي، العين، والراغب الأصفهاني، المفردات: (فحش).
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 187.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب الأصفهاني، المفردات: (نكر).
(9) الزمخشري، الكشاف: 3/ 222، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 187.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(11) الفراهيدي، العين: (زكو)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (زكا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 221.
(13) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 172.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ خطابٌ للَّذين صدَّقوا الله ورسوله، ألّا تسلُكوا سبيلَ الشيطان وطُرُقَه، ولا تقتَفوا آثارَه، بإشاعتكم الفاحشةَ في الذين آمنوا، فإنَّ الشيطان يأمر بالفحشاءِ - وهي الزنى - والمنكرِ من القول والفعل، ولولا فضلُ الله عليكم أيُّها الناس ورحمتُه لكم، ما تَطَهَّر منكم من أحدٍ أبدًا من دنسِ ذنوبه وشِركِه، ولكنَّ اللَّهَ يُطهِّرُ مَن يشاء مِن خلقه[1].

اللهُ يطهِّر عبادَه من دنس الشياطين، ويحذِّرهم من وساوسه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء في ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

الأصلُ في ياء النِّداء في مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن تكونَ لنداءِ البعيد[2]، لكنَّ الله ﷻ لا يبعُد عنه شيءٌ، ولا يعزُب عنه أمرٌ، فاعتبارُ معنى البعد في ياء النِّداء يُشيرُ إلى عِظَمِ الشَّيء الذي يَنهى الله عنه وخطورتِه: وهو اتِّباع الشَّيطان، والاغترارُ بوساوِسه، والخضوعُ لهواجسه؛ فـ(ياء) النِّداءِ "إذا نوديَ به القريبُ المُفاطِن؛ فذلك للتَّأكيد المؤْذِنِ بأنَّ الخطابَ الَّذي يتلوه مَعنيٌّ به جدًّا"[3]، ويشير أيضًا النِّداءُ بالياء إلى غفلة المنادَى عن مكائدِ الشَّيطان، وسهوِه عن الاحتراز منه والاستعاذة من شروره.

غفلةُ النّاس عن وساوسِ الشَّيطان، مع عِظَمِها وخُطورَتِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليَكشِفا الإبهامَ في (أيّ)، حيث توجَّه النِّداء إلى قومٍ مُعَيَّنين - وهم المؤمنون - ممّا يبعث في قلوبهم حُسنَ الإصغاء، فالنِّداء متوجِّهٌ إليهم.

الإغراءُ بنعمةِ الإيمان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 134، 135.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.

وآثر السّياقُ التَّعبيرَ بالموصول دونَ أن يقولَ مثلًا: (يا أَيُّها المؤمنون)؛ للتَّشويق إلى صلة الموصول ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ ليستثيرَ في نفوسهم معانيَ الإيمانِ، ويُحَفِّزَها على العمل بمقتضاه.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الإيمان بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقَّقَ الإيمانُ في القلوب، ورسخَ فيها، فكانتْ أسرع لاستجابَة النِّداء

جاء فعلُ الإيمانِ بصيغةِ الماضي في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ الإيمان صدر منهم، وتلبَّس بهم تلبُّسًا يجعلهم أهلًا للاستجابة لتحذير الله لهم، ويجعلهم يعملون بمقتضى هذا الإيمان، فالقلوب الخَصبَةُ بالإيمان أسرع في تلقّي الإرشاد.

سرُّ تخصيصِ المؤمنين بالنِّداء:

خُصَّ المؤمنون بالنِّداء في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّهم أكثرُ النّاس استجابةً لأوامر الله ومنهيّاته، وأسرع النّاس امتثالًا لتوجيهاته وإرشاداته، فالمؤمنون من عناية الله في المحلِّ الأرفع.

بلاغةُ النَّهي بـ﴿لَا﴾:

حُبُّ الله عبادَه المؤمنين اقتضى توجيهَهم وإرشادَهم

النَّهي بـ﴿لَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ توجيهٌ وإرشادٌ منَ الله ﷻ لعباده المؤمنين، فهو يحذِّرهم من الاستجابة لنزَغات الشَّيطان، الَّتي تسُدُّ عليهم بابَ الطاعاتِ، وتفتَحُ لهم أبوابَ المُنكراتِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الافتِعال ﴿تَتَّبِعُواْ﴾:

الشيطانُ يجُرُّ أتباعَه إلى مهاوي الضَّلالة

أشارتْ صيغةُ الافتعالِ في الفعل ﴿تَتَّبِعُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ إلى التَّكلُّف الشَّديد في الإصغاء لوساوس الشَّيطان، وهو تكلُّفٌ مُنافٍ للفطرة النَّقيَّة الَّتي فطرَ الله النّاسَ عليها، أي: لا "تكلِّفوا أنفُسَكم من أمر الضَّلال ضدَّ ما فطرها الله تعالى عليه، وسهَّله لها من الهدى"[1]، وفي اقتصارِ النَّفي على ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 180.

يقع بتكلُّفٍ وعزمٍ ثابتٍ: إشارةٌ إلى تجاوُزِ اللهِ عن الخطأ والنِّسيان، وعفوِه للزَّلّاتِ والهفَوات[1]، والتَّضعيف يشير أيضًا إلى المبالغة في النَّهي عن اتِّباعِ خُطوات الشيطان.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

للشَّيطان طرائقُ متعدِّدةٌ في الوسوسة

نهى الله تعالى عنِ اتِّباع خطواتِ الشَّيطان في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، ولم يتعلَّقِ الاتِّباع المَنهيُّ عنه بالشَّيطان مباشرةً، كما لو قيل: (لا تتَّبِعوا الشَّيطانَ)؛ لما في التَّعبير القرآنيِّ بالخطوات من عِظَمِ التَّخويف، ومزيدِ التَّرويع للمؤمنين، فالخطواتُ لفظٌ ثريٌّ بمعانٍ كثيرةٍ، لا يحملها التَّعبير بالنَّهي عن اتِّباع الشَّيطان مباشرةً، فالخطواتُ تعني الطُّرقَ والمسالك، وقد تعني العملَ، وقد يراد بالخطوات نزَغاتُ الشَّيطان، وقد يراد بها كلُّ معصيةٍ، فجاء التَّعبيرُ بأفصحِ العبارة وأوجزِها وأبلغِها وأحسنِها[2]، فكلُّ ما عدا السُّنن والشَّرائع من البدع والمعاصي والطُّرُق المُضلِّلة، والأفعالِ الخبيثة: هي خطواتٌ للشَّيطان[3]، ولو عُبِّر بالشَّيطان مباشرةً؛ لَما أعطى هذه المعاني.

دلالةُ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ معنًى وصيغةً:

طُرُق الشَّيطان وسُبُلُهُ إلى الضَّلالةِ والغواية كثيرة ومتعدِّدة

كشفتْ صيغةُ جمعِ الخطوات في قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ عن كثرة حبائل الشَّيطان التي يوقِع بها الإنسانَ في شِرْكِه وشَرَكِه، والخُطوة اسم مكانٍ يُطلق على المكان المتخطّى، وهو ما بين القدمين، كالغُرفة لما يُغترف بالكفِّ، فيكون المعنى: لا تتَّبعوا سبيلَهُ، ولا تسلكوا طريقه[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 236.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 30.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 237، 2/ 354، 4/ 172.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/ 186.

سرُّ إضافةِ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

تبشيعُ وساوسِ الشَّيطان وطُرقِ غوايته لشدَّة التَّحذير منها

إضافةُ الخطوات إلى الشَّيطان في قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ إضافةٌ تحقيريَّة، فاستمدَّ المضافُ من المضاف إليه تحقيرًا شديدًا، وتهجينًا أكيدًا، وهذا فيه من التَّنفير ما يجعل الإنسانَ يُقيم بينه وبين وساوسه حاجزًا قويًّا، وحصنًا منيعًا، من تقوى الله ﷻ والاستعاذة الدائمة من شروره.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

الشَّياطينُ في وساوسهم وطُرُقِ إضلالهم ملَّةٌ واحدة، ورأسُهم في الغواية إبليسُ

اللّام في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ للجنس، أي: لجنس الشياطين، ويجوز أن تكونَ للعهد، فيكون المرادُ إبليسَ، وهو أصل الشَّياطين وآمِرُهم، فكلُّ ما ينشأ من وسوسة الشَّياطين، فهو راجعٌ إليه؛ لأنَّه هو الَّذي خطا الخطوات الأولى[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

التَّحذيرُ البالغ من الوقوع في شَرَكِ الشيطان

في التَّعبير بخطوات الشيطانِ من قول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة لاتِّباعِ الشَّيطان بامتثال وساوسه[2]، والاقتداءِ به، واتِّباعِ ما سنَّ من المعاصي[3]، فهو "مِن مجاز التَّمثيل، فإنَّه ليس المرادُ النَّهيَ عن اتِّباع خطواته حقيقةً؛ إذ لا نراه نحن، بل الخطوات معنويَّة"[4]، وعلى هذا، يكون قد شُبِّهَ حالُ من أثَّرت فيهم وساوس الشَّيطان، وفعلوا ما أمرهم من المنكراتِ بحال السّائرين في طريقٍ على غير هدًى، فلا يصلون إلى مطلوب، ولا يحصلون على مرغوب.

ويجوز أن تكونَ وسوسةُ الشَّيطان للَّذين جاؤوا بالإفك مشبَّهةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 103.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 320.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 101.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 489.

بالمشي[1]، وعلى هذا تكون استعارةً تصريحيَّةً في لفظ ﴿خُطُوَٰتِ﴾، شبَّه فيها الوسوسة بالخطوات في أنَّ كُلًّا منهما وسيلةٌ توصل إلى شيء مرادٍ، وعلى كلٍّ من نوعَي الاستعارة - سواءٌ كانت تمثيليَّةً أم تصريحيَّةً - فإنَّ التَّعبيرَ بها أكشفُ لحِيَل الشَّيطان وخداعه، وفيه تحذيرٌ شديد للمؤمنين من شِراكهِ المنصوبة، وفخاخه المضروبة، المعبَّرِ عنها بالخطوات.

بلاغةُ إظهارِ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ مكانَ الإضمار:

الإمعانُ في التَّحذير من وساوسِ الشَّيطان

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بإعادة ذكر ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، بعد سَبْقِ ذكرِها في أوَّل الآية، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وكان مقتضى هذا التَّكرارِ إضمارَ مفعولِ الاتِّباع في الجملة الثانية، بأنْ يُقال مثلًا: (ومَنْ يَتَّبِعْها)، أو إضمارَ ما أُضيف إليه المفعولُ: (ومَنْ يَتَّبِعْ خُطواتِه)، لكن جاء التَّعبيرُ الأبلغُ بالإظهار في مقام الإضمار: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ للتَّأكيد على خطورة تلك الخطوات، ولإبلاغ البيان لها، ولفتِ الانتباه لها؛ لتقوية الحذَرِ من اقتفاء أثرِه، والتَّخويفِ من الخضوع لوساوسِه، ففي الإظهار والتَّكرير "مبالغةٌ في التنفير والتَّحذير"[2]، مع كمال التقرُّر في الذهن، وتمام استقلال الجُملَةِ[3].

معنى فاءِ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

مَنْ يتَّبعِ الشَّيطانَ؛ يقعْ في الفحشاء والمنكرِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ تعليليَّةٌ، والجملة "علَّةٌ للنَّهي عن الاتِّباع"[4]، وهي جملةٌ حلَّت محلَّ جوابِ (من) الشَّرطية؛ فهذه الجملة "علَّةٌ للجزاءِ، وُضِعَتْ موضعَهُ، كأنَّه قيلَ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 187.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 300.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102.

فقد ارتكب الفحشاء والمنكر؛ لأنَّ دأبَهُ المستمرَّ أن يأمرَ بهما، فمَن اتَّبع خطواتِهِ، فقدِ امتثل بأمره قطعًا"[1].

لطيفةُ التَّعليلِ عَقِب النَّهي:

الـشَّيءُ المعلَّلُ تُسرِع النَّفس إلى قَبوله

من لُطف الله ﷻ بعباده، أنْ علَّل جملةَ النَّهي ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، والله ﷻ ليس في حاجةٍ إلى التَّعليل، فإنَّه سبحانه إذا أمر، أو نهى؛ ما لنا إلّا الإذعانُ والخضوع، فإنَّه - تقدَّست أسماؤهُ - يأمر بالخير، وينهى عن الشَّرِّ؛ لكنَّ هذا التَّعليلَ منه سبحانه تلطُّفٌ بالعباد، ورِفقٌ بهم، وتودُّدٌ إليهم، وهذا التَّعليلُ يجعل النُّفوس تُقبِل على مضمون النَّهي بأَريَحيَّةٍ واقتناع، فالشَّيءُ إذا بدا علَّتُهُ؛ كانت النُّفوس إلى قَبوله أسرعَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ﴾:

الحرصُ الدّائم من الشَّيطان على الإيقاعِ بالإنسان

التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّةِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ أبلغُ مِنَ التَّعبير بالفعليَّة الَّتي وقعتْ جوابًا لـ(مَنْ) الشَّرطية، والتَّقدير: (فقد ارتكب الفحشاء والمنكر)؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ خطواتِ الشيطان فقدِ امتثل أمرَه[2]، وحُذِفَ هذا الجوابُ لدلالةِ الجملة الاسميَّة عليه، ولأنَّ الاسميَّة أقوى في إثبات الأمر بالفحشاء والمنكر من الفعليَّة، ففيها تحذيرٌ أشدُّ، وتخويفٌ أقوى.

بلاغةُ التوكيد بـ(إنَّ):

الإبلاغُ في التَّحذير من إغواء الشَّيطان، والتَّشنيع على من يتَّبع خطواته

التوكيدُ بـ(إنَّ) في قول الله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ للاهتمام بالخبر وتأكيده، ويجوزُ أيضًا أن يكونَ التَّأكيدُ لتنزيل غيرِ المتردِّد في الحكم منزلةَ المتردِّد؛ لأنَّهم باتِّباعهم وساوِسَ الشَّيطانِ، كأنَّهم يُنكرون إغواءَهُ وإضلالَهُ إيّاهم، وأمرَه بالفحشاء والمنكر[3].

(1) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 104.

عودُ الضَّمير مِنْ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

الشَّيطان رأسُ كلِّ شر

الضمير في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ من قول الله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ عائدٌ على الشَّيطان؛ لأنَّه الأصل، وقيل: عائدٌ على (منْ) الشَّرطيَّة، أَي: فإنَّ مُتَّبِع خطوات الشَّيطان يأْمر بالفحشاء[1]، وقيل: الضَّمير للشَّأن[2].

إيثار فعل ﴿يَأۡمُرُ﴾ مضارعًا:

الشَّيطانُ لا يملُّ من تنفيذ غرضه

مجيءُ فعلِ الأمر مضارعًا في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، يدلُّ على التجدُّد، أي: إنَّ الشَّيطان لا يسأم من إغواء البشر وإضلالهم، بل دأبُه المعاودة والمراودة، وهذا شأنُه ما بقي الناس، وتردَّدت فيهم الأنفاس، وهذا ما يوجب الحذرَ منه، دفعًا لمكايِده، وإبطالًا لمصايِده.

معنى باء ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾:

كشفَ القرآنُ حقيقةَ الشَّيطان

السياق هنا يرجِّحُ أن تكون الباء للإلصاق، وهذا يَكشف عن أنَّ الشَّيطان لا يأتي إلّا بِشَرٍّ، فالإغواء شِعارُه، والإضلال دِثارُه، لا يَني، ولا يمَلُّ، فالمنكرات به ملصقةٌ، والفحشاء به معلَّقة، تلكم الأمورُ لا تنفكُّ عنه، ولا ينفكُّ هو عنها.

دلالةُ التعبير بالفحشاء:

لا يبغي الشَّيطانُ للإنسان إلّا الشَّرَّ

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الفحشاء؛ للدَّلالة على أنَّ الشَّيطان يريد للإنسان أشدَّ المهالكِ، وأوْخَمَ المسالكِ؛ لأنَّ معنى الفحشاء "ما عظُم قبحُهُ من الأفعال والأقوال"[3]، فهو يريد للإنسان عظيمَ الأخطار، وبشاعةَ الأضرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ٦٠﴾ [النساء: 60].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 24.
(2) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) الراغب، المفردات: (فحش).

بلاغةُ الاستعارةِ في أمرِ الشَّيطان:

شـــدَّةُ وقـع الـوسـوسـة عـلى الإنـسـان، وتـسـفـيـهُ من يغترُّ بوسوسته

الأمرُ بالفاحشة ليس على حقيقته، فالمرادُ به الوسوسة والتزيين، وعليه يكون شبَّه النظمُ الحكيم التزيينَ والوسوسة بالأمر، والجامع بين الطرفين شدَّةُ الوقع وقوَّة التأثير، فالوسوسةُ وقعُها على القلوب شديدٌ، وتأثيرها على بني آدم أكيد، إلّا من عصمه الله ﷻ، فالضَّعف البشريُّ مجال لتنفيذ وسوسة الشَّيطان، كما أنَّ الأمرَ وقعُه على المأمور قويٌّ؛ لأنَّ الأصلَ في الأمر صدورُه مِنَ الأعلى إلى الأدنى، وإذا كان كذلك؛ كان تنفيذُ الأمر محقَّقًا، وفي التَّعبير بالأمر تسفيهٌ أيضًا لمن يغترُّ بهذا التزيين، وينقاد له، وفيه تحقيرٌ لشأنهم، والاستعارة إمّا أن تكون تمثيليَّةً أو تبعيَّةً[1].

فهذه الاستعارة تكشف عن خطورة الوسوسة في خرق القلوبِ، وتحثُّ الإنسان على الاستعاذة بقيّوم السموات والأرض، فهو وحدَهُ القادرُ على حماية الإنسان من مكائد الشَّيطان.

بلاغةُ حذفِ المضافِ إلى الفحشاء والمنكر:

حـذْفُ المضافِ للتَّعجيل ببيانِ قُبحِ وسـاوسِ الشَّيطان

في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ مضافٌ محذوف، والتَّقدير: (يأمرُ بفعل الفحشاءِ وفعل المنكر)، لكنَّ النظمَ القرآنيَّ حذَف المضاف لدلالة السياق عليه، وللتَّعجيل بالدُّخول إلى ذِكر القبائح والمنكرات الَّتي يأمر بها الشَّيطان، لتتبيَّن للنّاس بشاعةُ قصده، وشناعة غرَضه، فيحذروا منه.

دلالةُ عطفِ المنكرِ بالواو:

الـشَّـيـطـانُ يـأمـرُ الإنـسـان بجميع القبائحِ مِـنَ الأقـوال والأفعال

عطفَتِ الواو المنكر على الفحشاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، وهذا مِن عطف المفرداتِ بعضِها على بعض، والعطف بالواو يقتضي المغايَرة، فدلالةُ المنكر غيرُ دلالة الفاحشة، وإن كان يجمعُهما معنى القبحِ، فالفاحشةُ "ما عظُمَ قُبحُهُ من الأقوال

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 300.

والأفعال"[1]، والمُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكُم الشَّريعةُ والعقولُ الصحيحةُ بقُبْحِه[2]، وكان السّياق القرآنيُّ بليغًا في اقتضاء تلك المغايرة، ترهيبًا للإنسان من الشَّيطان وتحذيرًا، وتنفيرًا من اتِّباع خطواته.

عُطِفَ العامُّ على الخاصِّ لتبشيعِ الـفـاحـشـة، والتَّشنيعِ على من يقومُ بها

يتبيَّن من دلالة كلٍّ من الفحشاء والمنكر أنَّ لفظ الفحشاء أخصُّ؛ لأنَّها تصدق على عظيم القبح والفعل؛ أمّا المنكر؛ فهو كلُّ ما يُنكره الشَّرع والعقل السليم، عظُم هذا المنكرُ أو حقُر، فعُطِفَ العامُّ على الخاص في قول الله تعالى: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، والمغزى هو بيان بَشاعةِ الفحشاء وشناعتِها، وهذا التَّبشيعُ والتَّشنيع جاء مِن ذكر الفحشاء مرَّتين: مرَّةً وحدَها، ومرَّةً سيقت في العموم عند دخولِها تحت المنكرِ، وهذا فيه ما فيه من شدَّةِ التَّحذير من اتِّباع خطوات الشيطان.

سرُّ تقديمِ الفحشاء على المنكر:

تقديمُ الأخوفِ أبلغُ في التَّرهيب

قُدِّمت الفحشاءُ على المنكر في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ للتَّهويل منها، فهي من المنكر أشدُّ، وأمرها أحدُّ، وخطرها أفظعُ، وعاقبتها أوجعُ، فقدَّم النظم القرآنيُّ الأخطرَ على الأقلِّ خطورة.

نكتةُ الشَّرطِ بـ(لولا):

تزكيةُ القلوب مِـن فضل الله ورحمتِه بالعباد

التَّعبيرُ بـ(لولا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾، يشير إلى واسعِ رحمةِ الله ﷻ بعباده، وكريمِ فضلِه عليهم، فلولا وجودُ فضلِه ورحمته، ما حصلت لهم تزكيةٌ، وهذا بناءً على لفظة (لولا)، فهي حرفُ امتناعٍ لوجود غيره[3]، أي: امتنع وقوع جملة النَّفي: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾؛

(1) الراغب، المفردات: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (نكر).
(3) الزجاجي، حروف المعاني والصفات، ص: 4.

لوجود: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وخبر: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ هنا محذوفٌ، والتقديرُ: (ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه موجودان؛ ما زكَى منكم من أحدٍ أبدًا).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفضلِ:

هـدايـةُ اللـهِ وتزكيتُه عبادَهُ محضُ تفضُّلٍ وإحسان

إيثارُ النَّظمِ الكريم لفظَ الفضلِ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ للإشارة إلى أنَّ الله ﷻ بَرٌّ كريم بعباده المؤمنين؛ فلولا أنَّه سبحانه تفضَّل عليهم بالهداية والإرشاد، والتوبة والمغفرة؛ لأهلكَتْهم وساوسُ الشَّياطين.

سرُّ إضافةِ الفضل إلى الاسم الأعظم:

طاعاتُ العباد مِـن نـتـائـجِ الفضل الإلهيِّ

إضافةُ الفضلِ إلى الاسم الأعظم في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكشف عن أنَّ أعمالَ الطاعات إنَّما هي بفضل الله وتوفيقه، ولولاه ما طهُر من دنَس الذُّنوب أحدٌ، ولكِنَّ الله يُزَكِّي، ويُطهِّر مَنْ يَشاءُ من عباده، بإفاضة آثار فضلِه ورحمته عليه، وحَمله على التَّوبة، ثم قبولها منه"[1]، ولم يقلْ: ولولا فضلُ عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسنِ قيامكم بأمر الله؛ ما زَكى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا؛ لنعلمَ أنَّ العباداتِ - وإن كثُرت - فإنَّها من نتائج الفضل[2].

سرُّ تقديمِ الفضل على الرَّحمةِ:

طاعاتُ العبادِ مِن جميل مِنَنِ الله عليهم

فضلُ الله ﷻ نابعٌ من رحمته بعباده، وعلى هذا يكون تقديم الفضل على الرَّحمة في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، من تقديم المسبَّب على السَّبب، وهذا التَّقديم أدخَل في باب الامتنان على العباد، ليعلموا أنَّ عباداتهم وطاعاتهم ليستْ من جهدِهم، وإنَّما هي من توفيق الله لهم، وإعانتهم عليها، فطاعتهم تحتاج إلى شكر تِلوَ شكر.

(1) الخلوتي، روح البيان: 6/ 131.
(2) الخلوتي، روح البيان: 6/ 122.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنًى وتركيبًا:

شـمـولُ فضلِ الـلـه لـعـبـاده المؤمنين

جاء المبتدأُ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ مقيَّدًا بحرف (على) المفيدِ في أصل دلالته معنى الاستعلاء، وهذا يفيد شُمولَ فضل الله لعباده المؤمنين، وأنَّ هذا الفضلَ استعلى عليهم، وأظلَّهم، ومنع عنهم نزغاتِ الشَّيطان، ودخولُ حرفِ الاستعلاء على ضمير الخطاب العائد على المؤمنين في قوله جلَّ شأنه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ فيه زيادةُ امتنانٍ من الله ﷻ، وفي وقوع (على) بين الفضل والرَّحمة إسراعٌ بالتَّنبيه إلى هذا الامتنان؛ إذ كان يجوز أن يأتيَ التَّعبيرُ بحذف متعلِّق الفضل، والاكتفاءِ بمتعلِّق الرحمة: (ولولا فضلُ الله ورحمتُه بكم؛ ما زكا منكم من أحدٍ أبدًا)، وحُذِفَ القيدُ من الرَّحمة - والتَّقديرُ: (ورحمتُه بكم) - اعتمادًا على ذِكره مع الفضل: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

توجيهُ النَّفي بـ﴿مَا﴾:

لا تتحقَّق تزكيةُ الإنـسـان إلّا برحمة الرَّحمن

النَّفيُ بـ﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، فيه تحقيقٌ وتقرير لعدم وقوع الفعل عند انتفاءِ فضل الله ورحمتِه، وهذا التَّحقيقُ جاء بدلالة ﴿مَا﴾، فإنَّ النَّفيَ بها يقابل في الإثباتِ التَّقريرَ والتَّوكيدَ بـ(لقد)؛ "لأنَّه كأنَّه قال: واللهِ لقد فعل، فقال: والله ما فعل"[1]، فالنَّفيُ بـ﴿مَا﴾ أبلغُ في إثباتِ التَّزكية والتَّطهير بوجود فضل الله ورحمتِه، فلولا فضل الله على النّاس ورحمتُه بهم؛ ما حدَثتِ التَّزكية أبدًا، والمبالغة جاءت من نفي فعلٍ مؤكَّدِ الثُّبوت (لقد زكا)، فكان النَّفيُ بـ﴿مَا﴾ تأكيدًا وتحقيقًا لعدم وقوع الفعل من غير فضلِ الله ورحمته.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿زَكَىٰ﴾:

لا رادَّ لقضاء الله، ولا مُعَقِّبَ لـحـكـمِـهِ، ولا غالبَ لأمرِهِ

دلَّتْ صيغةُ الماضي لِفعلِ التَّزكية في قول الله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، على أنَّ إرادةَ الله إذا التبست بنفي شيءٍ؛ انتفى الشَّيءُ انتِفاءً مُحَقَّقًا، واستحال حدوثُه، فتزكيةُ العبدِ وتطهيره ما كانا ليَحدُثا إلّا بمرادِ الله وفضله ورحمته.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِنكُم﴾:

تطهيرُ العباد من دنَس المعاصي فضلٌ من الله ورحمة

في قول الله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، يجوز أن يكونَ ﴿أَحَدٍ﴾ فاعلًا على قراءة التَّخفيف في ﴿زَكَىٰ﴾، ويكونُ المعنى: (ما طهُر) بالفعل اللازم، ويجوز أن يكونَ مفعولًا على قراءة التَّشديد (زَكَّى)، ويكون المعنى: (ما طَهَّر) بالفعل المتعدّي، وعلى كلٍّ من الإعرابَين، فإنَّ شِبهَ الجملة ﴿مِنكُم﴾ مُقدَّمٌ عليهما، وسِرُّ التَّقديم أنَّ الخطابَ موَجَّهٌ إلى عباده المؤمنين، فهُمُ المعنيّون به؛ لذلك كان تقديمُهم أولى؛ تحديدًا لهم، وتركيزًا عليهم، وفي هذا لفتٌ لهم، وبعثٌ ليَقظَتِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِّنْ﴾:

استغرَقَ النَّفيُ الآحادَ والجماعاتِ

في قول الله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أكَّد النَّظمُ القرآنيُّ جوابَ الشَّرط وعمومَه بـ﴿مِّنْ﴾، الدالَّةِ على استغراق النَّفي للآحادِ والجماعة، ولم يقلْ: (ما زكا منكم أحدٌ)، أو: (ما زكّى منكم أحدًا)، فالتَّعبيرُ بـ﴿مِّنْ﴾ أبلغُ في تأكيد الاستغراق الَّذي يفيده ﴿أَحَدٍ﴾[1] وأقوى في ترسيخ العموم.

سرُّ تنكير ﴿أَحَدٍ﴾:

اللهُ وحده هو المزكّي للعباد

جاء النَّظمُ الحكيم بتنكير ﴿أَحَدٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ لإفادة العمومِ والشُّمول، فإنَّ أكثرَ أحوالِ استعمال (أحد): تعميمُه في النَّفي، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 47]، وقولِ العرب: (أحدٌ لا يقول ذلك)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 1567.

فهذا الاستعمالُ يفيد العمومَ، كشأن النَّكرات كُلِّها في حالة النَّفي[1]، ومعنى الآيةِ بتنكير ﴿أَحَدٍ﴾: أنَّه لا يوجد أحدٌ - مهما كان زمانُهُ أو مكانُهُ - زاكٍ بنفسِهِ أو مُزَكًّى من اللّه إلّا بفضل اللّهِ وتوفيقه.

فائدةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿أَبَدًا﴾:

تزكيةُ النُّفوس من محض رحمة الله وفضله

جاءُ التَّعبيرُ بظرفِ الزَّمانِ ﴿أَبَدًا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ لتأكيد النَّفي[2]، ولإفادةِ تعميم الزَّمان[3]، وتلك الأبديَّة تكشِف عن عِظَم فضل اللّه ﷻ في تزكية نفوس العبادِ، وأنَّها ليست من محض اجتهادِهم، بل توفيقُ اللّهِ هو الذي حداهم إليها، وأعانهم عليها.

بلاغةُ العطفِ والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

تزكيةُ النُّفوس خاضعةٌ لمشيئةِ الله ﷻ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ جملةَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى﴾ على جملةِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وهذا العطف يبيِّن أنَّه لا يستطيع إنسانٌ أن يزكّيَ نفسَهُ إلّا بمشيئةِ اللّه ﷻ وتوفيقِهِ، وهذا هو سرُّ المجيء بحرف الاستدراك (لكنَّ)؛ لِما في الكلام المنفيِّ من توهُّم إمكانِ تزكية أنفسِهم، فمصبُّ الاستدراك هو الصِّلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: لا تزكيةَ لمن لم يَشَأِ اللّهُ تزكيتَهُ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُزَكِّى﴾:

تزكيةُ اللهِ للعباد متجدِّدة بتجدُّد توبتهم

التَّعبيرُ بالمضارع في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ يفيد التجدُّدَ، أي: إنَّ تطهير اللّهِ قلوبَ عباده، وتزكيةَ نفوسِهم، يتجدَّدُ بتجدُّدِ توبتهم، ويحصل بحصول أوبتهم، وفي صيغة المضارع أيضًا تصويرٌ لمشهد التَّزكية، مع أنَّ التَّزكيةَ والتَّطهير أمرٌ معنويٌّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 740.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 1567.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 247.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 72.

فالمضارعةُ تضفي نوعًا من الحسّيَّة الَّتي تحُضُّ العبادَ إلى اللُّجوء إلى ساحة الله ربِّ العالمين ندمًا واستغفارًا.

إيثارُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَن﴾:

خضوعُ الأفعال لمشيئةِ ذي الجلالِ

يُتيحُ التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ ذِكرَ الصِّلة الَّتي ترفعُ الإبهامَ عن الموصول، والصِّلة هنا جملةُ ﴿يَشَآءُ﴾، ومن ثَمَّ، فإنَّ التَّعبير بـ﴿مَن﴾ الموصولة تفتح باب المشيئة، وأنَّه لا تكون تزكيةٌ إلّا وفْقَ مشيئةِ الله ﷻ، ثُمَّ إنَّ في إيثار التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ معنى العموم الدالَّ على أنَّ تزكيةَ الله ليست منحصرةً في شخص أو زمن، بل تكون لكُلِّ إنسان هيَّأَ نفسَهُ لمغفرة الله ورضوانه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالصِّلة ﴿يَشَآءُ﴾:

الهدايةُ متوقِّفةٌ على مشيئة الله، وهو يَجزي بها المهتدي

في مجيء الجملةِ الفعليَّة ﴿يَشَآءُ﴾ صلةً لـ﴿مَن﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ إثراءٌ معنويٌّ لا يوجد عند التَّعبيرِ بغيرها، ففاعل ﴿يَشَآءُ﴾ المُضمَرُ راجعٌ إلى الله ﷻ، ويجوز أن يكون الضَّميرُ عائدًا على الإنسانِ، ويكون المعنى: ولكنَّ الله يزكّي من يشاء أن يتزكّى، يُسوِّغ القولَ بهذا أنَّ التَّزكيةَ في القرآن أُسندت إلى الإنسان في قول الله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [فاطر 18] لكن الأرجح عودُ الضَّمير إلى الله ﷻ.

دلالةُ فعلِ المشيئة مضارعًا:

المشيئةُ لله ﷻ المطْلَقةُ

جاء فعلُ المشيئةِ في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالة على تجدُّدِ مشيئة الله ﷻ وفْقَ إرادته وحكمته، فمن وجد فيه خيرًا؛ زكّاه، ومن زاغ؛ أزاغ اللهُ قلبَهُ، وهذا فيه تحفيزٌ للعباد في أن يَسْعَوا إلى تطهير أنفسِهم بالتَّوبة والأوبة.

سرُّ إظهارِ اسمِه الأعظم:

إظهارُ الاسمِ الجليل في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛

للإيذان باستدعاء الأُلوهيَّةِ للسَّمعِ والعلمِ، مع ما فيه من تأكيدِ استقلال الاعتراض التذييليِّ[1]، وليكونَ التَّذييلُ جاريًا مجرى المثل[2]، إذ كان من الجائز أن يحُلَّ الضَّمير محلَّ لفظ الجلالة، فيقال مثلًا: (وهو سميع عليم)، لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، لكنَّ النظمَ أعاد لفظ الجلالة؛ تربيةً للمهابة في النُّفوس، حتّى لا يخوض النّاس فيما لا يجوز الخوضُ فيه، من إشاعة الفاحشةِ وغير ذلك.

تربيةُ المهابةِ في نفوس النّاس

سرُّ تنكيرِ ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾:

السرُّ في تنكير صفتَي السَّمع والبصر في قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هو تعظيمُ تلك الصِّفتين تعظيمًا يستوجب سَعةَ سمعِهِ ﷻ، وسعة علمِهِ لجميع المخلوقين، فلا يغيب عن سمعِهِ وعلمه شيءٌ، فهو الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، ووسِع سمعُهُ كُلَّ شيءٍ، وهذا تهديدٌ شديد للعباد، فإنَّ أفعالَهم وأقوالهم تحت سمعِ اللهِ وبصره، وهذا يجعلُهم لا يُقدِمون على معصيةٍ.

سَعَةُ علمِ الله وسمعه تهديدًا للعباد

دلالةُ صيغةِ (فعيل):

صيغ وصفُ الله بالسَّمع والبصر صيغةَ اسم الفاعل على وزن (فَعيل) في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وتلك الصيغةُ للمبالغة في سمعِ الأقوالِ، الَّتي من جملتها ما أظهروه من التَّوبة، وللمبالغة في علم جميع المعلومات، التي من جملتها نيّاتهم[3]، فالمرادُ أنَّه يسمع أقوالكم في القذف، وأقوالَكم في إثبات البراء، وهو عليم بما في قلوبكم من محبَّة إشاعة الفاحشة، أو من كراهيَّتها، وإذا كان كذلك؛ وجبَ الاحتراز عن معصيته[4].

وجـــــوبُ الـحـذَرِ ممَّـن يـسـمـع جـمـيـعَ المـسـمـوعـاتِ، ويـعـلـم جـمـيـعَ المعلوماتِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 188.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 348.

غرضُ الخبرِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

وجـوبُ الحـذرِ مـن مـوجِـبات غـضـب الـلـه سبحانه

غرضُ الخبرَينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ - أو الخبر ونعته - من قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هو التَّهديد؛ لأنَّ الإنسان إذا ما عَلِمَ سَعة علمه ﷻ وسعة سمعه؛ انزجر - لا محالةَ - وارْعَوَى عن موجِبات غضبه، "وفيها أيضًا حثٌّ لهم على الإخلاص في التوبة"[1].

بلاغةُ التَّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

التَّذييلُ تأكيدٌ لـلـمـعـاني السّابقة

ذُيِّلَتِ الآياتُ بقول الحقِّ تعالى ذكرُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، والتَّذييل له "في الكلام موقِعٌ جليل، ومكانٌ شريفٌ خطير؛ لأنَّ المعنى يزداد به انشراحًا والمقصد اتِّضاحًا"[2]، وهذا التَّذييل ناسَب المعانيَ السّابقة مناسبةً تامَّة، فجاء مؤكِّدًا لها، ومُظهِرًا خطَرها، ووجه التَّأكيد أنَّ الَّذي يخضع لوساوسِ الشَّيطان، ويفعل ما يزيِّنه له من الفحشاء والمنكر، ويَقذِف البريئاتِ العفيفاتِ، فإنَّ الله ﷻ سميعٌ لأقوالهم في القذف، عليمٌ بما في قلوبهم من محبَّة إشاعة الفحشاء بين المسلمين، فالتَّذييل بالغٌ في شدَّة التَّحذير، وقوَّة التَّنفير.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاتِّباع والاحتذاء والاقتداء والامتثال والانقياد:

الاتِّـبـاعُ مـوالاةٌ، ونظرٌ في دقائق الأمـــور، مـع ملاحظة معنى الشَّرِّ

جاء النَّظمُ القرآنيُّ دقيقًا جدًّا في اختياره لفظةَ الاتِّباع في قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ﴾ دون ما سواه من نظيراتها المذكورة؛ لأنَّها تفترق عنها بما يأتي، فالاتِّباع مناسِبٌ لخطوات الشَّيطان دون ما سواه؛ لأنَّ الخطوةَ تتبع أختها في المشي، فالموالاةُ فيها مرعيَّة، كذلك الاتِّباع يُراعَى في معناه معنى الموالاة بلا مُهلة[3]، ومعنى الموالاة ليس موجودًا في النَّظائر السّابقةِ ذكرُها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(2) العسكري، الصناعتين، ص: 373.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

وفي بعض دلالات الاتِّباع معنى الشَّرِّ - الَّذي هو من غرض الشيطان وقصدهِ - فجاء الاتِّباع مشيرًا إلى هذا، يقال: "أَتْبَعَ فُلانٌ فلانًا؛ إذا تَبِعَه يُريدُ به شَرًّا"[1]، ومعنى الشَّرِّ هذا ليس موجودًا في المترادفات السّابقة، وفي الاتِّباع أيضًا مراعاةٌ للمعاني الدَّقيقة، يقال: "فلانٌ يَتتبَّع مَداقَّ الأُمورِ"[2]، ومداقُّ الأمور من مداخل الشَّيطان للإنسانِ، ففي الاتِّباع نوعُ استبصارٍ ومعرفة، تومِئ بقصديَّة الموالاة عن علم.

أمّا الاحتذاءُ؛ فمأخوذٌ من مادَّة (حذا)، يقال: فُلانٌ يَحْتَذي على مِثالِ فُلانٍ؛ إذا اقتَدى به في أَموره، وحاذَيْتُه: صِرْتُ بحِذائه[3]، أي: بإزائه، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ في الانقياد للشيطان.

والاقتداءُ: الاتِّباع، ومنه الاقتداءُ بإمام الصَّلاة، وذلك أن يتبع أفعالَهُ، فلا يتقدَّم عليه، ولا يتأخَّر عنه، ولا يزيد عليه، ولا ينقص عنه[4]، والقِدوة: الأُسْوة[5].

والتأسّي يتعلَّق بما تكرهه النَّفسُ، وهو إمّا بلاء أو فتنة أو امتحان، وخطواتُ الشَّيطان أوسعُ من ذلك.

والامتثالُ: الاحتذاءُ، يُقال: امتثلْتُ مِثال فلانٍ، أَي: احتذيْتُ حَذْوَهُ، وسَلَكْتُ طَريقَتَهُ[6]، ويُلمح في الامتثال معنى المشابهة، فالمُمَثَّلُ: المصوَّر على مثال غيره[7]، وهو معنًى غير مرادٍ في سياق الآية.

والانقيادُ: الخضوعُ، تقول: قُدْتُهُ، فانْقادَ لي؛ إذا أعطاك مَقادَتَهُ[8]، وفي الانقياد معنى التَّقييدِ المنافي للاتِّباع بمعرفة وعلم واستبصار.

فترى أنَّ تلك النَّظائرَ لا تصلُح واحدةٌ منها في هذا السّياق؛ لأنَّها لا تحمِل المعانيَ الموجودةَ في الاتِّباع، الَّتي هي من أغراض الشَّيطان، فالاتِّباع يفترق عن غيره بمعاني

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حذا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(3) الفراهيدي، العين: (حذو)، والأزهري، تهذيب اللغة: (حذا).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (قدا).
(5) الجوهري، الصحاح: (قدا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (مثل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (مثل).
(8) الجوهري، الصحاح: (قود).

الموالاة المناسِبة للخطوات، ومعنى الشَّرِّ، ودقائق الأمور، والاتِّباع عن معرفةٍ وعلم، فكانت أنسبَ لسياق التَّحذيرِ من وساوس الشَّيطان ونزَغاته.

التَّزكية والتَّطهير والتَّنقية والإصلاح:

التزكيةُ جماعٌ لمعاني الصَّلاح، والطُّهر، والنَّموِّ، والبركة، والطَّهارة

كان السّياق القرآنيُّ دقيقًا في اختيار مادَّة التَّزكية في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، دون النَّظائرِ الأخرى، من التَّطهير والإصلاح وغيرِها؛ لأنَّ التَّزكيةَ تحمِل كُلَّ هذه المعاني، فمادَّةُ الزَّكاة في اللُّغة - سواء جاء فعلها بتخفيف الكاف ﴿زَكَىٰ﴾ أم بتشديدها (زَكَّى) - تحمل معانيَ متعدِّدة، لا توجد في نظائرها: ففيها معنى الصَّلاح والطُّهر، وفيها معنى النُّموِّ والبركة والطَّهارة، فـ"أَصل الزَّكاةِ في اللُّغَةِ: الطَّهارَةُ والنَّماء والبَركةُ والمَدْح"[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (زكى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»